شمال سيناء

مقدمة فى الجغرافيا التاريخية

الدكتور محمد السيد غلاب

يرجع الفضل فى كتابة هذا البحث الى الاشتراك فى بعثة معهد الصحارى المصرية الى شمال شرق سينا ، من ١٥ أغسطس الى ٩ سبتمبر ١٩٥١ ، ونحن نشير هنا الى أهم المراجع التى يمكن أن يرجع اليها القارىء اذا شاء الاستزادة فى نقطة من النقط أو استيضاح ما يمكن أن يكون قد أجمل .

تحتل شبه جزيرة سينا مركزا جغرافيا هاما بين مصر وجاراتها العربيات فى جنوب غرب آسيا ، وبين قارة أفريقية وقارة آسيا ، وقد كانت منذ أقدم العصور معبرا للجماعات البشرية بين هاتين القارتين ، وهى اليوم تحتل أخطر منطقة استراتيجية لمصر ، فلا غرو أن يتجه إليها الاهتمام بالدراسة والبحث ولعل فى هذه المقدمة الجغرافية التاريخية ما يصلح أن يكون أساسا لدراسات جغرافية بشرية لهذا الجزء من الوطن المصرى .

وستعنى هذه المقدمة بالنقط الآتية :

(ا) أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة سينا .
(ب) وصف عام للبيئة الجغرافية .
(جـ) أهمية شبه جزيرة سيناء لمصر من الناحية البشرية .
(د) أهم القبائل البدوية التى تسكن سيناء فى الوقت الحاضر .

(ا) أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة سيناء :

لعل قطراً من الأقطار لم يظفر بالخلود فى سجل الآثار المكتوبة بما ظفرت به سيناء فقد ذكرت فى آثار الفراعنة فى الأسرات الأولى ، فى الألف الثالثة قبل الميلاد واستمرت من ذلك الحين ترد فى سجلات الفراعنة ونقوشهم بصفتها المورد الهام لمعدن النحاس وحجر الفيروز والزبرجد (١) كما أنها تحتل

---

(١) أنظر فيما يختص بذلك الى V. Gordon Childe, Man Makes Himself, Ch. VII, VII. What Happened in History, London p. 100 ff.

الدكتور سليم حسن : مصر القديمة جزء أول ، القاهرة ١٩٤٠ ص ٣٤٨

مركزا ممتازا فى أسفار العهد القديم ، فهى مهبط قبائل بنى اسرائيل ، وبنى كنعان [1] من قبلهم ، ومعبرها إلى مصر ، وملاذها حين طردت من وادى النيل .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهى طريق الهكسوس أوملوك الرعاة ، كما ورد اسمهم خطأ فى كتابات المؤرخين الإغريق ، إلى مصر . وهى طريق تحتمس الثالث ومن بعده الرمامسة إلى سوريا ، وهى الطريق الذى عبره جيش عمرو بن العاص إلى مصر ، كما أنها طريق جيوش صلاح الدين لطرد الصليبيين من سوريا وفلسطين ، وهى طريق العثمانيين إلى مصر ، كما انها طريق الطموحين من المماليك المصريين ، أمثال على بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب ، نحو إعادة تكوين الأمبراطورية المصرية ، فى فلسطين وسوريا ، ثم هى أيضا طريق نابليون لفتح المشرق .

تلك هى سيناء ، ومركزها فى الكتب السماوية ، ومركزها أيضا فى تاريخ الهجرات البشرية التى عبرت مصر من الشرق ، وأهميتها فى التاريخ العسكرى لا لمصر وحدها ، بل للعالم أجمع . وإذا كانت مصر تحتل موقعا جغرافيا ممتازا بالنسبة للعالم القديم (الذى كان يشمل الهلال الخصيب ومصر ، ثم اتسع مدلوله ، فشمل الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، ثم حوض البحر المتوسط بأكمله) ، ثم للعالم الوسيط ، ثم للعالم الحديث ، فان سيناء تشغل من مصر مركزا ممتازا فريدا ، إذ هى المدخل الشرقى لهذه الواحة الكبيرة .

سيناء شبه جزيرة ، غير محددة المعالم من الناحية الطبيعية ، ولنغض الطرف مؤقتا عن الصورة التى فى أذهاننا لشبه الجزيرة ، والتى رسمها تعودنا النظر على خريطة مصر وحدودها الشرقية ، فذلك الخط المستقيم — ما عدا فى بضع نقط منه — الممتد من رفح إلى نقب العقبة ، لا وجود له فى الحقيقة ، بل هو خط مصطنع ، فرض فرضا على الخريطة الطبيعية ، وعلى سكان جنوب فلسطين وسيناء على حد السواء ، وإن تاريخ تخطيط الحدود بين الأقطار الشامية وبين مصر ، سواء فى ذلك أثناء العصور القديمة أو الحديثة حتى الأمس القريب ،

---

(١) سفر الخروج اصحاح ٢٦—٢٧ .

يبين لنا بوضوح أن الحكام ما كانوا يأبهون بغير الريف (الأرض المزرعة) فى فلسطين وفى مصر ، لكى يحددوا حدودها ، وإذا تجاوز اهتمامهم بلاد الريف ، فانما ذلك لكى يشمل المراكز ذات القيمة الحربية ، مثل رفح والعريش والطريق التجارى الذى يتجه بحذاء الساحل فيما بين دلتا النيل ومدينة غزة . أما فيما عدا هذا ، ما يطلق عليه اسم النجب حاليا ، وهضبة التيه وطور سيناء وشمال بلاد العرب ، فلم تعبأ المعاهدات والاتفاقات السياسية ، بين الولاة والحكام بتحديد تبعيته السياسية ، وحتى ما فعلوا ، فتلك مملكة البدو ، لا يشاركهم النفوذ فيها أحد ، يتقاسمونها بين بطونهم وعشائرهم المختلفة ، يغير بعضهم على أرض بعض ، ويتسع نفوذ بعض القبائل حينا وينكمش حينا آخر ، وهكذا ، يتحركون بحرية تامة بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين وسيناء ؛ ومن ثم كان تاريخ هذه المناطق الثلاث تاريخا — لا نقول مرتبطا متداخلا فحسب — بل هو تاريخ واحد . وكان من العبث تحديد الحدود وإقامة المخافر ، ولا سيما بين قبائل لا تشعر بأى قداسة لتلك الحدود ؛ وهذه الحقيقة أيضا تفسر الكثير من سلوك البدو الذى نراه بأعيننا الريفية الحضرية ، المصطبغة بالتربية الوطنية المحلية ، نراه غريبا شاذا ، ولكنه فى نظر البدو طبيعى لا غبار عليه .

(ب) البيئة الجغرافية :

شمال سيناء سهل مموج كبير ، ينحدر من هضبة التيه تدريجيا نحو البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وتنصرف مياه هذا السهل فى وادى العريش وروافده العديدة ، وهذا الوادى ينبع من هضبة العجمة ، ثم يعبر هضبة التيه المنبسطة ، حيث توجد النخيل والنخل ، والذى يعبر طريق الحج القديم المشهور ، ثم يهبط من مستوى ٤٠٠ متر نحو سهل الحسنة ، حيث تغذيه وادى قرية من الشرق ، ووادى البروك من الغرب ، ثم يشق الوادى طريقه فى خانق ضيق ، يسمى بالمضيقة ، بين جبل ضلفع من الشرق ، وجبل الحلال من الغرب ، ومن ثم يهبط إلى مستوى ٢٠٠ متر ، ويشق طريقه فى منطقة كثبان رملية حتى يصب شرق العريش . ويعتبر هذا الوادى أكبر الأودية الجافة الموجودة فى مصر ، ويلى نهر النيل من حيث المساحة التى يصرف

مياهها ، مما جعله أهم ظاهرة فزيوغرافية فى شبه جزيرة سيناء ، تقام عليه مشاريع رى الصحراء وتعقد على واديه الآمال فى مشاريع التوسع الزراعى المستقبلة .

وتتكون أرض هذا السهل بصفة عامة من التربة الهوائية (اللويس) [1] المكونة من فتات الصخر الجيرى ، مختلطة بالرمال ، والتى تعرف باسم الطفل الجيرى أو اللوم Loam ، وهى نتيجة التعرية الهوائية لفتات الصخور الجيرية والرمال واختلاطها معاً . إذ تتكون صخور شمال شبه الجزيرة من التكوينات الجيرية التى أرسبت فى الزمن الجيولوجى الثالث (عصرى الإيوسين والبليوسين) وتغطيها الكثبان الرملية التى تحاذى ساحل البحر من ناحية ، والتى تغطى نطاقا داخليا يمتد حتى خط القصيمة من ناحية أخرى . وهذه الكثبان الرملية ظاهرة طبيعية ذات أهمية كبرى فى شمال شبه الجزيرة ، تعتبر كخزانات طبيعية لمياه الأمطار التى تسقط شتاء ، فى النطاق الساحلى ، كما أنها ذات خطر داهم على الزراعة والبساتين القليلة المتناثرة ، وعلى طرق المواصلات فى المنطقة إن لم تتخذ الإجراءات اللازمة نحو تثبيتها فى أماكنها .

شمال سيناء جزء من الصحراء ، لا يكاد يسقط عليه سوى ١٠٠ مم من المطر فى العام ، اللهم إلا فى الشمال الشرقى من الساحل ، وحتى فى هذا الجزء نجد أن شكل الساحل يوازى تقريبا الاتجاه العام للرياح التى تهب شمالا ، ولذلك فاننا نستطيع أن نعتبر المنطقة من بورسعيد غربا حتى رفح شرقا ضمن النطاق الصحراوى .

ولا تختلف الظروف الجغرافية فى صحراء سيناء عنها فى صحراء النجب (جنوب فلسطين) فى شىء ، فهما فى الواقع اقليم طبيعى واحد ، يندمج كلاهما بدورهما فى إقليم شمال شبه جزيرة العرب وبادية الشام ، ولذلك كانت هذه المنطقة كلها مسرحا واحدا لحركات الجماعات البدوية منذ أقدم الأزمنة ، لا تحد حركاتها أى عائق طبيعى ، ولم تستطع الحدود السياسية المصطنعة أن تحدها حتى وقت قريب .

---

(1) Reifenberg, A. Soils of Palestine, London 1938, p. p. 25—50.

إلى جانب وادى العريش الذى يمتلىء بالماء فى فصل الشتاء بعد مرور أعصار يصطدم بمرتفعات سيناء (هضبة العجمة) ولعامل الارتفاع ذاته فى هذه الهضبة ، نجد أن موارد المياه قليلة جدا ومتناثرة فى هذه المساحة الكبيرة ، وهذه الموارد المائية ليست سوى عدد قليل من الآبار المتباعدة ، وعين ماء واحدة ، هى عين الجديرات ، أما فى النطاق الساحلى فان مستودع الماء الباطنى قريب جدا من سطح الأرض ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، وهنا يلاحظ أن الماء يتدفق من مستويين ، أحدهما المستوى العلوى ، وهو لا يزيد عمقه عن بضعة أمتار عن سطح الأرض ، ومستوى الفجرة ، ويتراوح عمق هذا المستوى بين ١٠ — ١٥ مترا عن سطح الأرض ، وهذا المستوى أغزر ماء من المستوى السطحى ، ويتطلب نفقات كبيرة ، ولكنها ضرورية للاستغلال الزراعى فى هذه المنطقة (١) .

(ج) أهمية شبه جزيرة سيناء من الناحية البشرية :

سيناء إذن ، من الناحية البشرية ، جزء من اقليم أوسع أفقا من مجرد شبه الجزيرة التى نتخيلها فيما بين الحدود الشرقية وقناة السويس ، وهى بحق حلقة الاتصال بين شبه جزيرة العرب من ناحية الشمال ، وبين جنوب الأقطار الشامية ، وبين وادى النيل الأدنى ، وأن الوسائل الرعوية — حتى وقت قريب — كانت تتجول بحرية فى هذا الاقليم المتسع . والمظهر العام لهذا الاقليم هو مظهر الصحراء التى كانت تسمى بالصحراء الصخرية أو بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea ، ويسقط عليها أقل من ١٠٠ سم مطر فى العام ، يشتغل

---

(١) E. Hull, Memoire on the Geology and Geography of Arabia Petraea, Palestine and the Adjacent Districts, London 1886.

H. J. L. Beadnell, The Wilderness of Sinai, London 1927, Moon & Sadek, Topography and Geology of Northern Sinai, Cairo, 1921.

A. Musil, Arabia Petraea. Arabia Deserta, 1927. & Northern Hejaz, 1926.

فيما يختص بالماء الجوفى ، من المفيد جداً الاطلاع على :

G. S. Blake & Goldschmidt, Geology and Water Supply of Palestine London 1947.

أهلها بالرعى فى بطون الأودية ، أو يتجمعون حول الآبار القليلة المتناثرة ، ولم تكف هذه البيئة أهلها مطلقا ، ولذلك فهم دائما فى حركة وراء الكلأ والرعى ، ولكن أهل البادية هؤلاء فرضوا أنفسهم على التاريخ بهجراتهم المتوالية إلى أطراف الهلال الخصيب من ناحية وإلى وادى النيل الأدنى من ناحية أخرى ، وهذه هى الهجرات السامية التى أشار إليها العهد القديم ونصوص قدماء المصريين وليس هنا مجال الحديث عن هذه الهجرات وتاريخها ، ولكن يكفى فى هذا المقام أن نذكر أن جمهرة العلماء والباحثين ، قد أجمعت على أن بلاد العرب هى مهد الشعوب السامية البادية ، وأن هذه البلاد كانت تفيض بسكانها التى لا تستطيع أن تقوم بأودهم ، فلم يكن ثمت بد من أن تنبعث الموجات البدوية من هذا الخزان البشرى الكبير ، وتهاجر إلى ماجاورها من بلاد الريف العراقى والريف السورى والريف المصرى ، ويتصور كثير من الباحثين أن هذه الهجرات كانت تخرج موجة إثر موجة ، وهم يعترفون بأن أقدم هذه الموجات ذكرا فى التاريخ ، هى تلك التى بدأت فى الألف الثالث ق.م. وهذا لا يمنع أن نتصور هذه الهجرات أقدم من ذلك ، ويبدو أن فى هذا التصور كثيرا من التبسط الذى قد يشوه الصورة الحقيقية ، وهذا التبسيط قد تدعو إليه مناهج البحث العلمى ، ولكنه لا يتفق كثيرا مع الحقيقة (١) .

اننا نشاهد حتى الآن جماعات البدو على أبواب الريف ، تحيا حياة بسيطة تحت رحمة الظروف الطبيعية ، لا يكاد يسقط فى بيئتها من المطر إلا القدر القليل وقد ينقطع الغيث عاما إثر عام ، إذ نحن هنا فى أطراف إقليم البحر المتوسط ، الذى تهب عليه أعاصير الشتاء الممطرة ، ومن شأن الأمطار الإعصارية الذبذبة وعدم الانتظام ، فتختلف كمية الأمطار الساقطة من شهر إلى شهر ومن عام

---

(١) عن تتابع الهجرات البشرية السامية وتواريخها أنظر على سبيل المثال :

H. J. Myres, The Dawn of History, London 1911, Ch. V.

W. Ripley, Races of Europe, New-York 1900, p. p. 365 — 399

C. Coon, Races of Europe. New-York 1937. Ch. XI.

— The Caravan, London 1952.

Burton, Semitic and Hamitic Origins, London 1935.

الى عام ، ولما كان مايسقط من مطر على حافة اقليم الصحراء واقليم البحر المتوسط نزرا ضئيلا ، لا يكفى سوى الكلأ فى بطون الأودية ، القريبة من مستوى الماء الباطنى ، فانه كان العامل الفيصل فى تحديد مساحات المراعى ، ومن شأن هذا المطر الضئيل من المطر أن يتأثر بسرعة ذبذبات أعاصير الشتاء ، التى لاتشمل إلا أطرافها البعيدة ، فان كانت الانخفاضات الاعصارية عميقة ، هبت إليها الرياح بسرعة ، وهى تزجى السحاب ، وكان المطر غزيراً ، وكان الغيث فى شمال الصحراء ، وكانت المراعى فسيحة ، تطعم منه قطعان الإبل والضأن. وتتكاثر ، فيعيش البدوى راضيا قرير العين ؛ أما إن كانت الانخفاضات الإعصارية ضئيلة ، قليلة الأمطار ، فى إقليم البحر المتوسط ، شحيحة أو جافة فى شمال الصحراء ، تضاءلت مساحات المراعى ونفقت الإبل وأصاب البدو غم شديد ، فاذا تكررت تلك الحالة بعد عام ، اضطربت جموع البدو وزحفت نحو الريف الخصيب ، إما متسللين فرادى وجماعات قليلة العدد ، تحمل متاعها وسلعها — من صوف وأقط — تلتمس الرزق فى أطراف الريف ، وإما غزاة فاتحين ، وخصوصا إذا كانت الأداة الحكومية فاسدة فى هذا الريف ، وكانت نظم الحكم منهارة ، ، والبدو الذين يعيشون على هامش الحضارات الزراعية المستقرة ، على جانب كبير من الاحاطة بأحوال تلك الحضارات ، لايترددون فى غزوها قوة واقتدارا إذا سنحت لهم الفرصة ، ويعقب هذا الغزو المسلح عادة فترة طويلة يتسلل فيها البدو إلى أطراف الدول الزراعية (الريف) ويحيون حياة نصف بدوية ، ولكنهم لا يلبثون أن يتدمجوا تماما فى الحياة الزراعية الجديدة ، ويستقرون نهائيا فى الريف . وهذه عملية قد تستغرق أجيالا طويلة ، ولكنها عملية مستمرة متكررة فى العالم العربى ، منذ أقدم عصور التاريخ حتى الوقت الحاضر .

وأقرب الأمثلة على هذه الظاهرة البشرية فى العالم العربى ، هو مثل الموجة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب ، التى سبقت ظهور الإسلام بخمسة قرون على الأقل ، وكان من مظاهرها دولة الأنباط جنوب فلسطين من القرن الثالث حتى مطلع القرن الثانى الميلادى وعاصمتها سلع أو بترا (Petra) ؛ وقد توغل هؤلاء العرب الذين كانوا يشتغلون بنقل التجارة عبر بلاد النجب ،

حتى مدينة الخليل (حبرون) وباقا شمالا ، وعلى أيديهم بدأ استعراب فلسطين كما أن على أيدى الغساسنة ، أصحاب أمارات شرقى الأردن وبادية الشام ، بدأ استعراب سوريا ، إذ أنهم هم الذين عبدوا الطريق للفتح الاسلامى نفسه فى القرن السابع الميلادى ، وقد بدأت موجة كبيرة من تدفق البدو من شبه جزيرة العرب ، شمالها وجنوبها ، إلى العراق وسوريا ومصر ، بعد الفتح الاسلامى [1] ، بل أن الهجرة العربية إلى بعض أنحاء مصر ، مثل مديرية جرجا ، لم تبدأ إلا فى القرن الخامس عشر ، أى فى الأمس القريب [2] ولولا الحكم المملوكى التركى لاستمرت الموجات العربية تفد إلى مصر بشكل أقوى ومثل هذا يتفق مع الحالة فى العراق والأقطار السورية . ومجمل القول أننا لانزال فى الموجة العربية التى تزعم الكتب المبسطة أنها حدثت فى القرن السابع الميلادى .

هذا المثل ينطبق على نحو أدق فيما تطلق عليه الكتب المبسطة الموجات السامية ، وتحدد لها تواريخ تبدو كأنها محددة ، وربما كانت هذه التواريخ تدل على الأوقات التى اتخذت فيها هذه الموجات شكلا عنيفا ومظهرا حربيا . وحركات البدو عملية مستمرة تتخذ شكلا سلميا فى معظم الأوقات ، ولا تركن إلى العنف إلا فى أوقات الضعف والانهيار التى تنتاب الحكومات المستقرة فى الريف العراقى أو السورى أو المصرى . ولا علاقة لها بما يزعم منتجتون ومدرسته من تغير المناخ [3] . بل هى لاتحتاج لمثل هذه النظرية — التى لم يلازم التوفيق أصحابها — لكى تفسر حدوثها ، ولولا ما استحدثت دول الغرب فى الشرق الأدنى من بدعة الحدود السياسية ، وتحافر الحدود ونقط الجمارك لاستمرت تلك العملية حتى وقتنا الحاضر ، تغذى الريف المجاور بمزيد من الدماء العربية [4] .

---

(١) أنظر الدكتور سليمان حزين ، سكان مصر وتاريخهم الجنسى ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الأول .

(٢) و (٣) أنظر صبحى وحيده ، فى أصول المسألة المصرية ، الفصل الثانى .

(٤) أنظر على سبيل المثال : E Huntington, The Pulse of Asia, New-York 1926.
— Palestine and its Transformation, New-York 1911.
— and Visher, Climatic Changes, New-Haven, 1922.

(٥) أنظر A. Musil, op. cit.

تحدثنا عن سيناء كجزء من إقليم أوسع يشمل شبه جزيرة العرب وجنوب شرق الأردن وفلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى برزخ العريش . ورأينا كيف كانت سيناء معبرا للشعوب البادية التى هاجرت إلى مصر من الشمال الشرقى وسنستمر الآن فى ابراز أهمية موقع شبه جزيرة سيناء باعتبارها جزءا من هذا الاقليم الواسع ، ولا سيما من الناحية البشرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى تسلل العبريين إلى مصر حوالى القرن الرابع عشر ق. م. ويبدو أن القبائل البدوية كانت تجول فى هذا الاقليم الواسع الذى أشرنا إليه ، والذى كان يمتد حتى يشمل حافة الريف المصرى فى وادى الطميلات وحدود مديريتى الشرقية [1] والدقهلية ، ويبدو أن هذه القبائل جميعاً كانت تمت بعضها بالبعض الآخر بصلات القربى والعصب ، فمنها قبائل ايدوم ومواب ، وقبائل الاسماعيليين والعبريين ، ويدل على ذلك أيضاً توزيع القبائل كما ورد فى سفر التكوين ، فمواب وايدوم استقرتا فى شرق الأردن ، وقبائل الاسماعيلية [2] (التى انحدر منها بنو قحطان والعرب) كانت فى جنوب فلسطين ؛ والعبريون استقروا فى هضبة يهوذا ، بعد أن انضم اليهم بنو عمومتهم الذين كانوا قد تسللوا الى أطراف الريف المصرى فى أرض جوشن ، ويدل على ذلك أيضا وصف يوشع لطريق الخروج من مصر ، ولاقليم غزة وبئر السبع الذى أطلق عليه العبريون اسم النجب ، ومعناه أرض الجنوب [3] ؛ هذا الى أن مدينة غزة نفسها كانت بقعة عسكرية ونقطة حراسة أمامية للجيوش المصرية لمراقبة تحركات البدو على حدودها [4] .

(١) أنظر الدكتور عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر : مجلة الجمعية الجغرافية المصرية جزء ٢١ ص ٩٢ وما بعدها .

وانظر أيضا Maspero, Dawn of Civilization, 1869, p. 459

(٢) أنظر Richard Burton, The Land of Midian, Vol. I. p.p. 236 & 294.

وأيضا خريطة توزيع القبائل فى فلسطين فى القرن العاشر (ق . م.) منقولة من : H. Guthe, Bibelatlas, Leipig, 1911. فى مقال للكاتب Ghallab, M. E. S. Constant and Variable Factors in the Interrlations Between Judaea Plateau and The Maritime Plain in Palestine, Bull Soc. Roy de Geog. d. Eg. Vol. XXIV, p. 223.

(٣) أنظر للكاتب مقال The Settlement of The Negeb. فى مجلة معهد الصحارى المصرية ، (تحت النشر) والجغرافيا التاريخية لاقليم النجب — محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٥٦

(٤) المقال السابق .

وكان لهذا الاقليم أهمية خاصة كطريق من طرق التجارة بين الشرق والغرب وخصوصاً فى حالات الاضطراب والقلق التى كانت تهدد الطريق التجارى الشمالى (اللاذقية — أنطاكية — حلب — قنسرين — فالفرات) أو (طريق دمشق — تدمر — الفرات) ، أى أنه كان طريقاً ثانوياً ، تلجأ اليه التجارة اذا تعرض الطريق الشمالى للاضطراب [1] . وكان مركز هذا الطريق هى مدينة سلع Petra ؛ اليها تنتهى تجارة اليمن عن طريق الحجاز بحذاء البحر الأحمر واليها تنتهى تجارة الشام عن طريق مدن حافة الصحراء ، دمشق فعمان فسلع ، ثم اتجه الطريق بعد ذلك نحو الشمال بشرق الى كرتب ، (عفيس) أو الى عبدا ؛ ثم الى بئر السبع فغزة من ناحية ، أو الى خلاجة فالعوجة فالعريش من ناحية أخرى . وقد نشط هذا الطريق بصفة خاصة من القرن الثانى ق. م. الى القرن الثانى الميلادى على يد الأنباط [2] . وهم فى الأصل بدو رحل من العرب ، امتد نفوذهم فشمل شرقى الأردن وشمال شبه الجزيرة العربية واقليم النجب والساحل الشمالى الشرقى لسينا وساحل فلسطين الجنوبى الذى شمل مدينتى غزة والمجدل ، وكانت عاصمتهم سلع ، وكان نشاطهم كله متجها نحو التجارة ، ولم يكن للزراعة أى نصيب فى حياتهم ، فمن الخطأ مسايرة بعض الكتاب الذين زعموا ، أن النجب كانت تتقبل كميات أكبر من الأمطار وأنها لهذا السبب مرت فى فترة رخاء ، بل الحقيقة أنها لم تكن تقل جدبا عما عليه الآن [3] ، وأن نشاطها كان تجاريا محضا ؛ وأن مدنها لم تكن سوى محطات للتجارة ، قامت حيث الماء والآبار القليلة فى هذا الاقليم ، نتيجة لظروف خارجة عن ارادتها ، وهى اعتراض البارثيين [4] لطريق التجارة الشمالى وما أن زال هذا العائق حتى عاودت التجارة طرقها القديمة ، وفقدت كل من تدمر وسلع مركزها القديم . وعفا عليهما الزمن .

---

(١) راجع S. A. Huzayyin. Arabia and The Far East, Cairo 1942 p. 6 and pp. 219 ff.

(٢) راجع محاضرة محمد السيد غلاب المشار اليها فى محاضرات الجمعية الجغرافية سنة ١٩٥٦

(٣) راجع ما سبق وأيضا L. Woolley & Lawrence. The Wilderness of Zin.

(٤) راجع الدكتور حزين ، المرجع السابق ذكره .

وقد استمر هذا الطريق التجارى فى العصر الرومانى الأغريقى (البطلمى والرومانى فى مصر) وكان من نتيجة ذلك ازدهار العريش ورفح ، أما فى العصر البيزنطى ، فقد كان هذا الأقليم بمثابة اقليم حدود تحولت فيه المدن التجارية إلى مدن قلاع لحراسة الشام ومصر من غزوات العرب ، فسارت بذلك مدن النجب وسينا نحو التدهور ، وما أن انهارت دولة بيزنطة فى القرن السابع الميلادى ، حتى فقد هذا الأقليم أهميته كاقليم حدود ، وما أن توقفت التجارة بين الشرق والغرب من القرن السابع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى زالت أيضا الأسباب الداعية لقيام هذه المدن الصحراوية ، فاندثرت بسرعة ولم يبق منها سوى مدن شمال سينا ، التى كانت بمثابة محطات للقوافل المسافرة بين الشام ومصر عن الطريق الساحلى ، وقد ظل هذا الطريق الساحلى عامرا بالقوافل حتى الوقت الحاضر ، لم يفقد أهميته منذ أقدم عصور التاريخ حتى الآن (١) .

ومما زاد فى أهميته امكان الحصول على الماء الجوفى من عمق قليل على طول الساحل ، وقد اخترقت هذا الطريق الجيوش التركية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وسارت تلك الجيوش عن طريق رفح والعريش وبئر العبد فالقنطرة كما سارت عن طريق العوجا فالقصيمة فبئر الحسنة فالفردان على ضفة القناة الشرقية ، وقد نبهت هذه الغزوة أذهان البريطانيين الى أهمية شبه الجزيرة الحربية فعبروا الطريق الشمالى ومدوا خطوط السكك الحديدية فى أثر جيوشهم الفاتحة لفلسطين ، بمساعد المتطوعين المصريين .

هذان هما الطريقان اللذان يعبران شمال سينا ، أما الى الجنوب من ذلك فيعبر شبه الجزيرة طريق الحج المشهور ، الذى يبدأ من شمال السويس (العجرود) ويمر بنخل وسط هضبة التيه ويتجه جنوب بشرق حتى نقب العقبة ، ويقال ان هذا الطريق بدأت أهميته بحج شجرة الدر عام ٦٤٥ هـ(٢).

---

(١) راجع عباس عمار ، سبق ذكره ، من ص ٥ — ١٠

(٢) المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

(منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) ثم رحلة الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧م) ثم الناصر قلاوون (١٣١٩م) . ويبدو أن هذا الطريق لم يكن مطروقا الا فى عصور الاضطراب التى كانت تثور فيها قبائل البجا على ساحل البحر الاحمر ، وتعرقل طريق الحج الجنوبى (طريق قفط أوقوص ثم عيذاب أو القصير) .

(د) القبـائل البدوية فى سينـاء(*)

يبلغ عدد السكان البدو فى شبه جزيرة سينا حوالى ٤٠٫٠٠٠ نسمة ، يقابلهم ٥٠٫٠٠٠ حضرى ، هم سكان العريش وأبى سقل ورفح والقنطرة والطور ، ويسكن فى مدينة العريش وحدها حوالى ٤٠٫٠٠٠ نسمة من الحضر .

وتنقسم سيناء من الناحية الادارية الى ثلاثة أقسام : قسم سيناء الشمالى ، ويشمل النطاق الساحلى من رفح الى القنطرة ، وقسم سيناء الأوسط ويشمل هضبة التيه ، وقسم سيناء الجنوبى ويشمل هضبة العجمة ، والمثلث الجنوبى من شبه الجزيرة .

ويسكن قسم سيناء الشمالى قبائل الرميلات ، والسواركة ، والحديرات والتخارسة والبلى والدواغرة والعبابدة والمساعيد ، وتنقسم كل قبيلة بدورها الى عائلات .

فالرميلات تشمل أبو صبيع ، وأبو عياد ، وأبو عبد الله ، وأبو شيخة . والسواركة تشمل أبو داود ، وابن عوض ، ومريشد وابن عراجة وأبوعيطة والبياضية تشمل الحرش ، وأبو عماى وأبو مرزوقة وسيد احمد والأخارسة عائلة واحدة .

ويسكن سيناء الوسطى ، قبيلة الترابين وهى أقوى قبيلة فى سيناء وتنقسم الى عددكبير من العائلات أهمها الدلادلة ، والحسابلة ، والعويضات ، والقصار ، والعرجانى ، والحرامية ، وأبو سحبان ، وابن جازى ، وابن زاهد ، والبداره

(*) هذه المعلومات مستقاة من مشايخ البدو ومن بعض أهل العريش الذين يشغلون وظائف ادارية فى المحافظة ، وهم بحكم عملهم على اتصال دائم بقبائل البدو ، ويمكن الثقة فى معلوماتهم ، اذ أنهم أيضا بحكم عملهم ، يهتمون اهتماما خاصا ، بتوزيع القبائل ومناطق تجوالهم ، واحصاء أسرها .

والجهامات ، وأبو نقير ، والطيور ، والشنيات ، والبحيح . وهناك قسم كبير من الترابين فى جنوب فلسطين أشهمم الصوفى ، وأبو ستة ، وأبو غالية ، وأبو الحصين ، وأبو بكره ، وأبو عويلة .

أما قبيلة الاحيوات وهى تسكن قسم سيناء الأوسط أيضا فتشمل النجمات والحمدات ، والصفايحة ، والقصار ، والحناظلة ، والعقفان . ويسكن جنوب سيناء عدة قبائل صغيرة أهمها مزينة ، والطوره (نسبه الى الطور) والعليقات والحرارشة والصوالحة .

الى جانب هؤلاء ، هناك قبيلة العزازمة التى تسكن شقة ضيقة على طول الحدود المصرية الشرقية فيما بين جبل العمز شمالا وشرقى أرض الترابين جنوباً .

ويزعم عرب شمال سيناء جميعا فيما عدا الحويطات ، أنهم من نسل وائل جد بنى عطية فى شبه جزيرة العرب والمعازة فى مصر[1]، الا أنه من الصعب تتبع نسب القبائل البدوية لتدخل عدة عوامل اهمها الفرق بين نظام القبيلة Tribe ؛ والعشيرة Clan (التى تسمى عائلة فى سيناء) فالعشيرة جماعة من الناس تشترك فى نسب واحد ، يرجع الى أصل واحد ، بينما القبيلة تتكون من عدد من العشائر لا يشترط فيها أن تكون ذات علاقة نسب الى بعضها بالبعض الآخر ، وقد يحدث أن تندمج عائلة أو عشيرة فى قبيلة من القبائل أو تخرج منها لتندمج فى قبيلة أخرى تبعاً لظروف محلية مختلفة ، منها أن تحل بها هزيمة على يد قبيلة أقوى ، فتتعرض للسبي وينفرط عقدها ، ومنها أن تفتقر الى وسائل القوة المادية مما لايسمح لها بالاستقلال القبلى ، كأن تجدب مراعيها وتتناقص أنعامها ؛ فتتشتت عشائرها وتنضوى تحت ألوية قبائل أخرى تمتاز بالقوة والغنى والمنعة ، تدفع لها الخوة نظير حمايتها . وقد تنتقل زعامة القبيلة من عائلة الى عائلة أخرى ويصحب ذلك تغيير فى اسم القبيلة ذاتها[2]، ولذلك كان استجواب رؤساء العشائر ومشايخ القبائل عن أصول قبائلهم مدعاة فى كثير من الأحيان الى الوقوع فى الخطأ .

---

(١) Murray, G. W. The Sons of Ishmael, 1935, p. 242 ff.

(٢) المرجع السابق .

وتعتبر قبائل بلى أقدم العناصر العربية الموجودة فى شبه جزيرة سيناء ، وان كانت من أقلها عدداً وأضألها شأنا الآن ، وربما رجع مقامها فى أرض الحفار (شمال سيناء) الى القرون الأولى للمسيحية ، عندما كان للانباط مملكة واسعة تمد نفوذها الى شمال سينا ، وقد اعتنق الأنباط المسيحية كما اقتبسوا الثقافة الهيلينية ، وتسمى أحد ملوكهم الحارثة باسم حبيب الاغريق Philhellene هذا الى أن الدولة البيزنطية كانت تعهد الى بعض بطون العرب فى حراسة حدودها الشرقية وأشهرهم الغساسنة ، وأحلافهم من لخم وجذام ، وهى بطون من كهلان . وقد امتد نفوذ هذه القبائل من عمان الى آيلة (العقبة) ومن هذه الى حدود مديرية الشرقية ، وكانت كلها كما ذكرنا تدين بالمسيحية ، وقد وجدها الغزاة المسلمون فى هذا الطريق عند دخولهم مصر[1].

ولكن بعد الفتح العربى الاسلامى لم تعد سيناء هدفا فى ذاتها للقبائل المهاجرة ، اذ أن هذه وجدت فى ريف مصر فيئا أغنى وأجدى عليها بالخير العميم . ولذلك فقد اقتصرت أهميتها على كونها مجرد طريق عبور للقبائل العربية المهاجرة الى مصر ، وقد ظل الحال كذلك حتى العصر المملوكى التركى أى الى القرن الرابع عشر ، اذ أن المماليك ومن لف لفهم من العناصر التركية (ابتداء من الدولة الطولونية) لم تكن تلحظ بعين الارتياح الى ازدياد العنصر العربى الصميم فى مصر ، بل كانت لا تشجع الا العناصر التركية والشركسية وما اليها ، ومن ذلك الحين بدأت موجات عربية أخرى فى تعمير شبه الجزيرة نفسها ، بعد أن كانت مجرد طريق مرور .

وأهم التغيرات التى طرأت على توزيع القبائل فى سيناء منذ الفتح الاسلامى هما :

١ — أن جذام ولخم هاجرت من شبه الجزيرة الى مديرية الشرقية .

٢ — أن ثعلبة قوى شأنها فى جنوب فلسطين وامتد نفوذها الى شمال سيناء من القرن العاشر حتى الرابع عشر .

---

(١) عباس عمار ، سبق ذكره ، ص ١٠٤

٣ — منذ القرن الرابع عشر ضؤل شأن ثعلبة أمام ضغط قبائل أخرى من بنى عطية ، لم يرد ذكرها فى الكتابات السابقة لهذا العهد ، وهى السواركة والترابين ، الا أن بقايا ثعلبة لا يزال تمثلها قبائل ضئيلة الشأن الآن ، أهمها البلى والعائد ، وقد هاجر معظم هؤلاء الى ريف مصر .

٤ — كان السواركة يحتلون معظم شمال سينا الى الجنوب والغرب من العريش الى أن ضغط عليهم الترابين والتياهة من الجنوب فانكمشت منطقتهم[1] .

وبعد :

هذه هى سينا ، الباب الشرقى لهذا البلد الأمين وحلقة الوصل بينه وبين أقطار العروبة الأخرى ، بينه وبين خزان العروبة الكبير شبه الجزيرة العربية ، وبينه وبين الهلال الخصيب ، منه وفدت الدماء الذكية التى تجرى فى عروق المصريين ، السلالة الحيزوية التى دفعت بالمدنية المصرية القديمة ، فى عهد بناة الأسرات ، الى الأمام ، والتى يمثلها تمثال شيخ البلد ، والتى تكون أحد عنصرى مصر من الناحية الانثروبولوجية . ومنها اتصلت بمهد الديانات التوحيدية الكبرى ، ومهبط الوحى فى فلسطين ، ومنها وفدت العناصر العربية تبشر بالاسلام وتحمل لغة القرآن وفيها تكونت الحضارة العربية .

سيناء هذه تحتاج منا مزيدا من العناية لنهض بها عمرانيا واقتصاديا ، ولتصد منها الغزاة الاسرائيليين ، وانها بتاريخها المجيد المتصل بتاريخنا القومى منذ ٣٠٠٠ ق. م. لتحفزنا أن نلقى بالفرنجة الى البحر ، كما قد فعل أسلافنا ، ليأخذ التاريخ مجراه الأصيل ، وتصبح سيناء مرة أخرى حلقة الوصل بين مصر وبلاد العروبة الأخرى .

---

(١) راجع الخرائط المنشورة فى المرجع السابق (عباس عمار) ص ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .